الزمان

حين يكون الشعر وطناً للشاعر!

الماء يكذب مجموعة شعرية جديدة

للشاعر بسّام صالح مهدي

منذر عبد الحر /دمشق

الشاعر بسّام صالح مهدي، من الشعراء الذين يحرِصون على عُمــق المُفــردة وبعدها الاستثنائي في التعبير والصياغة التي لا تَستَظل بسندٍ يُخرج عن مُعطيــات الهمّ الإبداعي، وهو يَنهلُ من قَناعَة تجربة نَضَجَت في جوٍّ خاص، ســاهمت فــي إثرائهِ الحوارات الجادة في العملية الشعرية وضرورة إنقاذها باستنطاق الجوامــد، والخروج عن النسقِ الرتيبِ الذي أثقلَ كاهلَ القصيدة الكلاسيكية، فكان بسام، مع مجموعة نافِرَةً من الشعراء، قد أطلقوا حججهم، عبر نصوص وبيانــات، لاقِــت ردود أفعال مُتفاوتة، وهذا أمر طبيعي، ولعلني ممن تصدّى في إحــدى المــرّات لطروحات واخزة قدمها هؤلاء الشعراء، فحرّكوا فيها، البركة الساكنة، و جــذبوا انتباه المتلقي، فيما أثاروا حفيظة بعض الذين تمسّكوا بهواجس التقليــد، أو الــذين انفلتوا تماماً وصاروا بعيدين عن واقع الــشعر، وأثقلــوه بطروحــات مجانيــة، وادعاءات فجة، أثبتت التجربة الزمنية، أنهم كانوا قصيري النفس، ولم تحــتملهم الأجواء، ولم يحتملوها هم فسرعان ما تواروا في عزلة لا يعرف لها مصير!.

أما بسّام صالح مهدي، فقد ظل مواظباً في تجربته، متمكناً منها، فكــان جــامح الطموح متوقداً، لا يخشى إطلاق رأيه الصريح، حتى وإن كان مغــايراً، مثيــراً لحفيظة الآخر، المنزوي تحت خيمة قناعات، ركن إليها، وغلّفها بالجمود.

المهم، أصدر بسّام مجموعته الأولى في بغداد، بنسخ محدودة، وطباعة أجهدتــه تكاليفها، وقدّمته إلى القارئ القريب منه، وهذه ظاهرة ، شملت جميــع الــشعراء العراقيين، أيّام الحصار القاسي على بلادهم، حيث يلجأ الشاعر، من أجل توثيــق مشروعه الإبداعي، إلى طباعة نسخ من مجموعة شــعريّة تمثــل تجربتــه، إزاء المرحلة الزمنيّة التي يعيشها، ولينشرها بين أصدقائه، شــعراء وقــرّاء، ونقــاداً متابعين مخلصين، وهكذا كانت مجموعة بسام الأولى، مطبوعــة مــرّتين، وفــي كليهما لم تكن – طباعيّاً- بمستوى ما يريد لكنها لفتت الأنظار إليه، كشاعر يخطو خطواتٍ حذرة، وهو يعي معطيات تجربته، فكانت (لا أعدّ الهروب خيولاً) إطلالة مؤثرة، تشير بقوّة، إلى سعي هذا الشاعر للإمساك بجذوة الشعر والتألق بها، وأنا شخصيّاً، شهدتُ تفوّق بسام على أقرانه من خلال توفّر فرصتين أمامه، كنتُ فيها عضواً في لجنة تحكيم شعريّة، الأولى كنتُ لا أعرفه فيها شخصياً، لكنها كانــت، مباشرة، أي ألقى الشعراء المشاركون قصائدهم أمامنــا، نحــن لجنــة التحكــيم، فتشاورنا، ووجدنا أنفسنا متفقين على تفوّق هذا الشاب الأسمر المدعو بسام صالح مهدي ففاز بجدارة، وفي المرّة الثانية، كان فيها بسام من أجمل أصــدقائي، لكــن مسابقة هذه المرة، كانت حول قصائد مقدمة للجنة، وهي مطبوعة، وقد وزّعــت إلينا دون أسماء، لمنحها درجات، اتفقنا على صيغتها، وكان أن اتفق جميع أعضاء اللجنة، على نصّ شعري دون غيره، وبعد أن كشفنا الأسماء، كان الفائز هو بسام صالح مهدي، وهكذا أخذت أتابع تجربته الشعرية، حتى بعد أن ترك البلاد، وسكن دمشق العزيزة، فأصدر مجموعته الثانية (التفاتة القمر الأسمر) عن إتحاد الكتّــاب العرب في دمشق، وكانت مجموعة متفوقة أيضاً، ولا أستغرب فوزه بجائزة أبــي علاء المعرّي الشعرية التي أقيمت في سورية، فهو يستحقها بجدارة، كما أن لبسام مشروعاً تنظيرياً، لم يأخذ حقه الإعلامي، وهو (قصيدة الشعر في العراق) علــى غرار، بل رداً على مشروع (قصيدة النثر) الذي أحدث ضجيجاً، وفورة إعلاميّة، ربما كانت أكثر من المنجز، وكان بسام قد رأس في العــراق رابطــة الرصــافة للشعر العربي، التي انبثقت منها مجلة أشرعة التي وضعت ركائز هامة لتجربــة شعرية جديدة في العراق.

في مجموعته الجديدة الموسومة (الماء يكذب) الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب، هذا العام، قدّم الشاعر بسام صالح مهدي قصائده مبوبة تبويبا فنياً، يشير فيه إلى وعيه تجاه ما يؤدي من شعر، فكانت، الباقة الأولى تحت باب (قصائد) وقد تضمنت قصائد متكاملة في البناء والرؤية، أما الباقة الثانية فقد جاءت تحت عنوان نثريات، وقد تضمنت، مقطوعات شعرية وقصائد تفعيلة أراد الشاعر أن يفصلها عن سابقتها لتؤدي مؤدى فنيا مختلفاً، وإن كان الاختلاف غير واضح بشكل حاد، فالباب الأول، جاءت إضمامته، تنطوي على ميل للشكل العمودي المتقن، المؤطر بالشكل التقليدي المعروف، وهي قصائد (الماء يكذب) التي نثر الشاعر أبياتها حسب فواصلها (الجمليّة)، كي تكون بعيدة عن النمطية في قراءتها بوصفها قصيدة عمودية حيث يقول فيها:

قمري
على شفتيكَ يجري
يا نهرُ
كم تسعى لغيري ؟
أورثتني ...
شجرَ الدعاء
وشيبَ سنبلتي
وجذري
أورثتني ...
صوتَ الأذان
يفرُّ من فجرٍ
لفجرِ

وكذلك جاءت قصيدة (أرملة في جنوب القلب) التي يقول فيها:

مازلتِ تعتقدين
أنك سنبله
أو أنّكِ امرأةٌ

بطعم قرَنْفُلَهْ

كذلك شأن القصيدة الأخرى (عينٌ في البعيد) فيما خرجت قصيدة (آمن سـرّاً) عن نسق سابقاتها في هذا الباب، فكانت تنتمي لتجربة قصيدة التفعيلة بشكل واضح جلي.

أما الباب الثاني (شعريات) فقد، جاءت نصوصه، أكثر تحرراً، من قالب الشكل النمطي، رغم أن الشاعر كان مجيداً متمكناً في قصائده العمودية، وقد نحتها نحتاً، لم يسقط فيه في فخ أمراض القصيدة العمودية، لكنه في باب (شـعريات) حـررّ جملته، وأطلقها في فضاءات أوسع وأكثر شملاً وحركة، ومن قصائد هذا الباب (لا وطن بلا لفظ سليم)، والعنوان يدلّ على موقف فكري فني مزدوج ويقـول فيهـا الشاعر:

باعوني إلى الأعداء
بعتهمو ... إلى قلبي
وأني تاركٌ بغداد
تقضم ُ طفلها
وتباع بين الحرب والحرب
وأنّي تاركٌ قطعان جدّي
نهب أصحابي
و أصحابي إذا جاعوا
تناهوا في أذى البيداء كالذئب

أما القصيدة الثانية عبارة عن صرخة جميلة، لشاعر رقيق يعيش بـين بـراثن الواقع المؤلم وهي (أعيدوا لي الآن أمّيتي)، فيم جاءت القصيدة الثالثة فـي هـذا الباب تحمل عنوان (إليك طبعاً... من سواك تكون له)، وهي تنم عن حوار داخلي يمثل صراعاً إنسانياً حاضراً يقول فيها الشاعر:

- حدّثتَ نفسك هكذا ؟
أفعلتها ...؟
أبداً ..!!

ولا عرقٌ رمى بخجوله

فلأنت أوّل من رضيت بذلّةٍ

وأقات عمر

نحولها بنحوله

وطنٌ ...

وأنت رضيتُهُ كمؤجل

ولبثت فيه وعشت في تأجيله

أما الباب الثالث فقد جاء تحت عنوان (مقطوعات) وهو يمثل حالاتٍ شـــعريةً، جمالية، ولوحات شجن مؤثرة نقتطف منها هذه المقطوعة:

وطنٌ .. شباكٌ .. عنكبوتُ

وطنٌ .. وأحزانٌ .. بيوتُ

نهرٌ يعلّقُ شامةً بيضاء

أنجبها السكوتُ

وأنا سأولد ها هنا ...

وأموتُ في مَنْ لا يموتُ

وجاء الباب الرابع تحت عنوان (أغنيتان)، وهو يضم أغنيتين رقيقتين، رائعتـــين صياغة ومعنى وأداء مبسّطاً نذكر من الأغنية الأولى مقطعاً هو:

لا تبحثي ...

فستخسرين العمر كي تجدي مثيلي

لا تبحثي ..

في الحبّ لن تجدي بديلي

لا تبحثي ..

مثلي أيمكن أن يكون ؟!

لا لن يكون..

أما الباب الخامس فقد جعله تحت عنوان (أيتام)، ضم، قصائد تتألف من بيت واحد فقط، جعله الشاعر يتيماً، مقتنصاً من تجربة الحياة، وشراراتها المعبّرة ومنها هذا البيت اليتيم:

مكانك أن تظلَ بلا مكانِ

زمانك مستحيلٌ في الزمانِ

أما الباب الأخير، فقد جاء تحت عنوان (قصائد نثر)، ضم أربع قصائد، مختلفة عن نسق المجموعة كلّها، لكنها، حفلت بالروح الشعرية للشاعر، وقناعة تعبيره، وموهبته، التي لا تقف في تعبيرها عند حدود، وصياغات مشروطة، نقتطف من قصيدة (وصية المعلّم) هذا المقطع:

السماء تتكئ على نجمةٍ متعبةٍ في عينيه

دموعه مصابيح صغيرة

يخبئ خبّات القمح في حقيبته المدرسيّة

بين دفاتره تولد سنابل وفراشات

وها هو الآن

ولدٌ ضائع

لقد جاءت مجموعة (الماء يكذب) للشاعر المبدع بسام صالح مهدي، لتكون إطلالة إبداعية جديدة، ذات أهميّة استثنائية، في خارطة الشعر العراقي الجديد.